

نشأة المدينة

للاستاذ زكي نجيب محمود

«الانجليزى هافلوك اليس» في مقال كتبه عن المدينة، حيث يقول عن هذه الكلمة انها لم ترد في دائرة المعارف التي وضعها جماعة الانسيكلوبيديين لكثرة مايقوم حرل تعريفها من خلاف.

ولكن مهما يكن من أمر ذلك الخلاف في مدلول المدينة، الذى منشؤه تباين وجهات النظر للحياة، فان أحداً لا ينكر أنها تعتمد في تقدمها بوجه عام على تقدم العلوم والمعارف أكثر من أى شيء آخر، وأكاد أقول في شيء من اليقين إنها عبارة عن كمية المعارف التي وصل إليها الانسان، لآ أكثر ولا أقل، على الرغم من تلك الدعوى التي لا يؤيدها منطق ولا تاريخ. والتي يأخذ بها بعض المفكرين في كثير من النعرة الواهية، وهي أن المدينة رهينة بتقدم الأخلاق وحدها، ويكفي أن تلقى نظرة عجلية الى تاريخ الانسانية منذ فجرها حتى الآن، لتعلم أن الأخلاق في العصور الأولى هي هي الأخلاق في العصر الحاضر، لم تتقدم إلا بمقدار ضئيل جداً لا يكاد يذكر، فلا يزال الصدق محموداً والكذب مردوفاً، ولا تزال الأمانة خيراً والحياطة شراً... وأما العلوم فهي تسير كل يوم، إن لم يكن كل ساعة سيراً حثيثاً الى الامام.

يتضح من هذا أن المدينة في جوهرها عبارة عن المعارف الانسانية، فاذا ما أرنأ أن نبحث عن الأسباب التي أدت الى نشأة المدينة، فلنبحث عن نشأة العلوم، ماداماً صنوين متلازمين، أو بعبارة أدق لانهما شيء واحد.

حاول أن تصور لنفسك الجماعة الانسانية في فجر التاريخ، فترى انساناً لا يملك من الأدوات التي يستعين بها في عمله الشاق شيئاً، ترى انساناً يعمل بيده كل شيء، لا يكاد يستيقظ من نومه حتى يمشى في مناكب الارض سعياً وراء قوته من نبات وحيوان، ويظل في هذا السعي حتى يغشاه الليل بظلمته، فيركن الى كهف يأوى اليه مهدود الجسد، فيستغرق في النعاس حتى تشرق عليه الشمس كرة أخرى، فينهض من مخدعه ليعيد في يومه سعى أمسه.

فهذا الذى يستنفد نهاره في الحصول على قوته وسائر ما تقتضيه الحياة من شؤون، ويقضى ليله في جوف الكهف نائماً، لا يكون لديه من الفراغ ما يمكنه من التفكير في خلق السماوات والارض، والتفكير أولى مراحل العلم، وإذن فالعلوم كامنة في ثنايا العدم، ولا يكتب لها الظهور الى ضوء الوجود إلا إذا تبدلت الحياة غير الحياة والانسان، فتتوفر لجماعة انسانية بيئة

كان راسخاً في الأذهان الى عهد قريب أن دراسة التاريخ بعيدة كل البعد عن دقة العلوم الطبيعية، ذات القوانين الثابتة المطردة، من حيث طريقة البحث، وانتراع الاحكام الكلية من الأمثلة الجزئية، لانه رواية لاعمال الانسان وسلوكه فرداً وجمتمعاً، وعلى ذلك فهو لا يخضع لقانون دقيق، كما تخضع العلوم الرياضية مثلاً، مادامت اعمال الانسان نفسها لا تطرد ولا تستقيم مع قانون خاص، وبناء على تلك العقيدة الراسخة، لم يحاول مؤرخ في العصور الماضية - فيما نعلم - أن يستنبط من شتى الاخبار التي يرويها التاريخ قانوناً عاماً ينظم الجماعة الانسانية، كما استنبط الرياضيون من مختلف المظاهر السكونية مجموعة القوانين اليقينية التي لا يجد المشك اليها سبيلاً.

ولكن دراسة التاريخ أخذت تخطو في العصر الحديث خطوات واسعة نحو الدقة العلمية واستخلاص القوانين العامة من الجزئيات التي تزخر بها بطون المجلدات. ومن أدق ماقرأنا في هذا الموضوع، ما كتبه توماس بكنل، المؤرخ المعروف، الذى حاول في كتابه «تاريخ المدينة في انجلترا» أن يخضع النشاط الانسانى، الذى يبدو في احداث التاريخ المختلفة، الى نواميس ثابتة دقيقة، كالعلوم الطبيعية سواء بسواء، وكأني به قد وضع المجموعة البشرية في مخبار وأخذ يضيف اليها من المواد ألواناً مختلفة، حتى انتهى به البحث الى تلك النتائج القيمة التي دونها في كتابه المذكور.

وسنحاول في هذا البحث أن نحلل العوامل الاساسية، والقوانين العامة، التي أنتجت المدينة الانسانية من أحضان الهمجية الأولى، لانها لم تنشأ حيث نشأت اعتباطاً وعن طريق الصدفة العمياء، ولكنها نتأج محتومة لمقدمات طبيعية.

ولكن ماهي هذه المدينة التي نحاول أن نتبع أسباب نشأتها؟ أليس جديراً بنا ان نلم المامة سريعة بمعناها أولاً، حتى يقوم البحث على دعامة قوية وأساس متين؟ نعم، ولكن دون ذلك البحوث المستفيضة وليس هذا المقال التقصير مجالاً لهذا البحث المنتشعب الأطراف، والذي لأحسب موضوعاً يبلغ فيه الخلاف بين الباحثين من الشدة والاتساع ما بلغه في هذا الموضوع، وأذكر أني قرأت ملاحظة طريفة أوردها الكاتب

تساعدنا على انتاج محصول يزيد على طعام يومها ، حتى يتكون فيض انتاجي لا يلبث أن يتجمع عند أفراد قليلين ، هم الاقوياء عادة ، وبذلك يستطيع ذلك النفر القوى أن يتخلص من المجهود الذي كان يبذله لتحصيل ضرورات الحياة ، وإذن فقد تمتع بالفراغ الذي لا بد أن يستتبع التفكير في مظاهر الكون ، وهذا التفكير هو النواة الأولى للعلوم والمعارف المختلفة .

يتضح مما سبق أن الشرط الأول لنشأة العلوم — وبالتالي المدنية — هو خصوبة التربة . الذي يؤدي الى وفرة الانتاج بما يزيد على حاجة الاستهلاك ، وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ ، فالمدنية المصرية القديمة لم تبت في وادي النيل إلا لخصوبة تربته ، كذلك الامة العربية كانت قبل إسلامها أقرب الى الهمجية منها الى أي شيء آخر ، فلما جاء الاسلام ، ثم تبعه انتقال الأعراب الى الوديان الخصبة كوادى النيل ووادي دجلة والفرات حيث الخصب والتماء والثروة انقلب هؤلاء الأجلاف شعباً متحضراً بلغت مدنيته حداً قل أن شهد مثله التاريخ .

ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن المدنية الاوربية تختلف في أسباب نشأتها عن المدنيات القديمة ، فبينما هذه تنشأ من خصوبة التربة ، نرى الاولى نتيجة لاعتدال المناخ . ولما كانت المدنيات القديمة قد تأثرت بالعوامل الطبيعية وحدها ، أعنى أنها نتيجة لتفاعل المناخ والتربة من غير أن يتدخل الانسان تقريباً ، وخصب التربة محدود الغلة مهما أجدد استغلاله في حين أن الحضارة الاوربية لا يقف في سبيلها شيء لأنها أثر لتفاعل المناخ وذكاء الانسان الذي لا يمكن أن تتصور له حدوداً يقف عندها ، لهذا فالمدنية الاوربية أقوى أساساً وأعمق جذوراً وابعد مدى من المدنيات القديمة جميعاً .

ولكن اذا كانت المدنية في أول أمرها — كما بينا — تابعة لخصب التربة ، حتى يتوفر من المحصول الزائد ما يتجمع فيكفي فئة من الناس مؤونة العمل ، وبذلك تبدأ الطبقة العمالية في الظهور ، فلماذا اقتصر المدنيات على المنطقة المدارية ، حيث ظهرت في مصر والشرق الأدنى والهند وبيرو ومكسيكو ، وكل هذه تكاد تكون على خط عرض واحد ، نقول لماذا لم تنشأ المدنية في المنطقة الاستوائية ، مع أنها وفيرة الانتاج النباتي الذي يحقق شرط الفراغ الضروري للتفكير ، فالعلم ، فالمدنية ؟ الجواب على ذلك سهل ميسور ، وهو أن الجهات الحارة لا تساءل الانسان على التفكير والنشاط ، بل من شأنها أن تقعده وتعجزه عن ضروب النشاط جميعاً ، ومن جهة أخرى ، فإن الوفرة النباتية الطبيعية ،

التي ليست ثمرة العمل الانساني ، تؤدي الى التواكل وتعمل على خمود الذهن ، لان الحاجة أم الاختراع . وليس هناك حاجة تشحذ القوى العقلية لاكتشاف أي اختراع . إذن فأنسب مكان تظهر فيه المدنية في أول عهدها ، هو ذلك الذي يضطر الانسان الى العمل لتحصيل القوت ، والذي يكون من خصبه ما يستطيع منه ان يمد الانسان بغلة تربي على حاجة الاستهلاك .

ولكن قديمو القاريء فيعترض بقوله إن هذا المناخ المعتدل الذي يبعث الانسان على النشاط الذهني ، وتلك الخصوبة التي توفر للانسان محصولاً زائداً ، قد يتوفران في كثير من بقاع أوروبا ومثلاً ، فلماذا لم تظهر المدنية في تلك الربوع في بادئ أمرها ؟ هنا يتقدم (بكل) في كتابه الذي ذكرناه في أول هذا المقال ، بتعليل دقيق يدعو الى الإعجاب واطالة النظر فهو يرى أنه لا بد للمدينة في مهدها من كثرة عدد السكان بحيث يكون التفاوت عظيماً بين الطبقات ، حتى تستطيع الطبقة الحاكمة أن تتمتع بكامل السلطان المطلق على أفراد الشعب ، فلا ينازعونها في الاستيلاء على ثمرة مجهود غيرها ، وزيادة السكان بما فيها من تفاوت الطبقات ، ميسورة في الجهات الدافئة دون الشمالية الباردة واليك البيان :

لا ريب في أن الانسان يدور مع الطعام وجوداً وعدمه فبينما تراه يتكاثف ويزدهم في البقاع الخصبة ، ترى الصحراوات خراباً لا يكاد يعمرها أحد ، وهكذا يتوقف عدد السكان كثرة وقلة ، على درجة خصوبة الارض ، ذلك لأنه كلما كثر الطعام كان الحصول عليه ميسوراً لكل انسان ، ومادامت غائلة الجو مأمونة الجانب ، فزيادة النسل تطرد اطراداً لا يحول دونه شيء ، والعكس صحيح . أي كلما قل الطعام وعز مناله على الفقراء ، تناقص السكان حتى يتكافأ عددهم مع ما تنتجه الأرض من محصول .

ولسنا بحاجة الى ذكر ضرورة الطعام للكائن الحي لأدائه وظيفتين هامتين لا مندوحة عنها لحفظ الحياة : فهو الذي يحفظ حرارة الجسم ، كما أنه يعوض ما يفنى من الانسجة اثر القيام بالعمل ، ولكننا نريد أن نرتب على ذلك نتيجة لها خطرهما في موضوع بحثنا ، فنالحقنا المعروفة أن حرارة الجسم تتولد من اتحاد أكسجين الهواء الذي تنفسه مع كربون الطعام الذي نأكله ، فيولد هذا الاتحاد الحرارة اللازمة لحفظ كيان الانسان ، فلنكي يحتفظ الجسم بحرارته ، يجب أن يناسب بين أكسجين الهواء وكربون الطعام ، أي يجب أن

يحصل من الطعام على مقدار يكون مافيه من كربون متناسبا مع الاكسجين الذى يصل اليه عن طريق التنفس .
ولما كان الانسان فى الجهات الباردة يتنفس اكسجيناً أكثر من زميله فى الجهات الدافئة: أولاً، لان الهواء أكتف فى الجهات الباردة فيكون مقدار الاكسجين فى الشهية الواحدة أكبر مما لو كان الهواء مخلخلاً خفيفاً . وثانياً، لأن الانسان يتنفس فى الجهات الباردة مرات أكثر عدداً فى كل فترة زمانية . فهذا التنفس السريع من الهواء الكثيف يضاعف كمية الاكسجين التى تصل الى الجسم فى الجهات الباردة . والنتيجة اللازمة لذلك أن الانسان فى هذه الجهات يجب أن يمد جسمه بمقدار من الكربون فى طعامه أكبر جداً مما يتطلبه زميله ساكن الجهات الحارة .
اذن فأهل الشمال فى حاجة الى لحوم الحيوانات المختلفة لما تحتوى عليه من الكربون الذى يتطلبونه فى طعامهم ، مع أن أهل الجنوب يكادون يقتصرون على النباتات وحدها . ومن الحقائق العجيبة التى تلفت النظر ، أن كمية الحيوان أقل جداً من كمية النبات . ومعنى هذا أن أهل الشمال لا بد أن يبذلوا أضعاف المجهود الذى يبذله أهل الجهات الدافئة للحصول على طعامهم ، ولا مندوحة من التعرض فى سبيل ذلك الى أشق الاخطار وأعنف الصعاب ، حتى أن بعض الكتاب يعمل بذلك روح المخاطرة التى تميز الاخلاق الاوربية . واذن فالنتيجة الطبيعية لقلّة الطعام فى الجهات الباردة دون الجهات الحارة ، زيادة السكان فى الثانية بنسبة أعظم من الأولى . وزيادة السكان معناها كثرة الايدى العاملة ، وكلما كثرت هذه الايدى قلت أجورها تبعاً لقانون العرض والطلب ، وقلّة أجور الطبقة العاملة معناها أن تتجمع الثروة فى أيدي قليلة — هى الفئة القوية لأن توزيع الثروة هو توزيع للقوة — وهكذا تزداد هذه الطائفة ثراء على حساب أجور العمال . ثم يتسع هذا الفرق ويزيد حتى يتكون فى الامّة طبقتان اجتماعيتان ، بينهما فارق شاسع فسيح : طبقة الملوك والاشراف ، والطبقة الفقيرة العاملة .
وبديهي أن هذا الفرق الاجتماعى يكون فى الجهات الدافئة أكثر منه فى الجهات الباردة حيث السكان قليلون بسبب قلّة الطعام ، فتزداد أجورهم نوماً ، وبذلك تقل الثروة التى تتجمع فى أيدي الفئة القوية ، وتضيق مسافة الخلف بين الطبقتين ، ولعل هذا هو السبب فى تمكّن الزراعة الاستبدادية فى بلاد الشرق ، ونماء الديمقراطية فى ربوع الغرب . ويظهر مما سبق أن العاملين الذين اشترطهما «بكل» اقيام المدينة يتوفران

فى الجهات الدافئة قبل الباردة .
يحسن أن ألخص هذا التفصيل فى سلسلة منطقية يسهل استيعابها حتى لا تتشعب أطراف الموضوع ، فيفقد القارىء الرابطة التى تصل بعضها ببعض :
زيادة السكان تتبع كثرة الطعام
ولما كان الطعام الضرورى للحياة أكثر فى الجهات الحارة منه فى الجهات الباردة فقد ازداد عدد السكان فى الجهات الحارة بنسبة أكبر من الجهات الباردة ولكن ازدياد السكان يؤدى الى قلة الاجور .

ثم يؤدى هذا بدوره الى ازدياد الثروة عند الطبقة القوية .
اذن فالطبقة غير المنتجة تظهر فى الجهات الحارة قبل ظهورها فى الجهات الباردة . ولما كانت نشأة العلوم — أى المدنية — رهينة بوجود هذه الطبقة غير المنتجة التى تستطيع أن تتفرغ للتفكير فالنتيجة المنطقية لكل هذه المقدمات هى أن المدنية تنشأ فى الجهات الدافئة قبل نشأتها فى الجهات الباردة ، ولكنها اذا ما نشأت فى هذه الجهات الأخيرة ، كانت أقوى أساساً لما ذكرناه من أنها فى تلك الجهات نتيجة لتأثير المناخ فى الانسان ، فى حين أنها فى الجهات الدافئة نتيجة لتأثير المناخ فى التربة، ولذلك نراها تسير نحو الجهات الباردة كلما ارتقت وازدادت قدمها رسوخاً ، ولو أنا تصفحنا التاريخ على عجل للاحظنا لأول وهلة أنها نشأت فى مصر (وهى منطقة دافئة) ثم أخذت تسير نحو الجهات الباردة شيئاً فشيئاً ، فقد انتقلت الى الشرق الأدنى ، ثم إلى اليونان ، ثم الى ايطاليا ، ثم الى أواسط أوروبا ، وهى الآن رابضة فى شمال غربى أوروبا ، ويتنبأ بعض الكتاب بأنها ربما استقرت فى اسكندناوه فى مستقبل أيامها ، وهناك من الدلائل ما يؤيد ذلك .

لقد شرحنا فيما سبق القواعد العامة التى تتحكم فى قيام المدنيات ، ورأينا أنها نتيجة منطقية لمقدمات طبيعية ، وانها لا تخبط خبط عشواء فى سيرها . ويجمل بنا الآن أن نطبق تلك القواعد الشاملة على نشأة المدنية المصرية زيادة فى الايضاح

ذكرنا أن بواعث المدنية هى :

(١) اعتدال الحرارة لأن الحرارة الشديدة تشل قوة التفكير

(٢) خصب التربة

وهذان الشرطان متوفران فى وادى النيل ، فهو فى المنطقة

البقية على صفحة (٢٣)